

لا عدول عنه ، لأنها تمكس لنا ألواناً من البيئات المتنوعة التي كان العربي عرضة لها آنذاك ، كأسماء الكائنات الحية وغير الحية التي كان على اتصال بها ، وأنواع الأسلحة التي كان يستعملها في حروبه وغاراته ، والموازن والأثقال التي كان يمسطنها في يمه وشرائه ونحوه . كما أنها تعكس لنا أيضاً شيئاً من أثر البيئة الطبيعية في نفسه وإحساساته ، ففي ميسورك مثلاً أن تقرر بإحصاء الأسماء التي تعبر في العربية عن ضروب المصائب والزيايا من ناحية ، والأسماء التي تعبر عن مظاهر الجو والعبث من ناحية أخرى ، ثم الموازنة بينها ، ما إذا كانت بيئة العرب قبل البعثة بيئة قاسية مظلمة قاحلة أم بيئة مشرقة سمحة خصبة

وليس ذلك وحسب ، بل في ميسورك الاستدلال بالأسماء العربية « العاربة » منها و « المرربة » ، الأصلية والداخلية ، على مختلف التقلبات السياسية التي طرأت على الوسط الاسلامي في غضون تاريخه الطويل الحافل ؛ وبالتالي الاستدلال على مختلف الأدوار الاجتماعية التي تقلبت عليه ، ومقدار نفوذ كل من العناصر الفلسفية والجنسية فيه ؛ فإذا كانت الأسماء الفارسية مثلاً في الآداب والفنون أغزرت من الأسماء اليونانية دل ذلك على أن نفوذ الفرس من هذه الناحية كان أبعد من نفوذ اليونان ، وإذا كانت الأسماء اليونانية في ميدان الفلسفة أوفر من الأسماء الفارسية والهندية دل ذلك على أن العرب قد تأثروا بالفلسفة اليونانية أكثر من تأثرهم بفلسفة الفرس والهند . بيد أنه بالأسف ليس الوصول إلى هذا الاستدلال باليسير الهين لأن المعجم العربي ناقص من وجوه كثيرة ، أهمها الوجه التاريخي المدعم بالشواهد والأدلة مما لا يتسع للمقام لذكره

هذا إلى عمورك خلال أزمنة التيقظ الفكري والنهضات الدينية الحافلة على بعض أسماء الأعلام الدائمة بين الأوساط العامة لأنها غالباً هي أسماء بعض الزعماء أو القادة أو الأنبياء الذين لهم الفضل كل الفضل في بعث هذه النهضات وإحيائها ، بحيث يستدل منها على ما لهؤلاء الصالحين من حظوة لدى الجمهور ، وما لتلك النهضات من سحر في أفئدة العامة . ومن ثم كانت لبعض الملل أسماء خاصة تعرف بها ولا يمسطنها غيرها كمزرا واسرائيل في

فلسفة الأسماء

بقلم ظافر الدجاني

إذا كانت اللغات من ألوان الحياة الفكرية الصريحة التي يتسم بها الانسان وتميزه من سائر الكائنات الحية ، فإن الأسماء — أو ما يعبر عنه الصرفيون بأنه مادل على معنى في نفسه غير مقترن وضماً بأحد الأزمنة الثلاثة المعروفة — من مظاهر بيئته الاجتماعية والطبيعية . فلسنا نبالغ إذن إذا قلنا بأن لعنصر الأسماء في اللغات فلسفة خاصة مستقلة ، استطاع العلم الحديث مؤخراً أن يقتبسها ويستزيد منها بل يستقلها استقلالاً بالتمام يستحق عليه كل ثناء وإعجاب وإكبار . ومن الحق علينا القول بأن أقطاب اللغات في العالم لا يتفقون على أقدمية الأسماء وأسبقيتها في اللغة ، فذهب من يذهب إلى أنها أسبق مرتبة في الوضع والاستعمال من الحروف والأفعال ، لأن منزلتها في النفس من حيث القوة والاعتقاد أن تكون قبل الفعل ، والفعل قبل الحرف ؛ ومنهم من يذهب — وهؤلاء معظمهم من أصحاب التوقيف ودعاة الإلهام — إلى أن جميع الأصول اللغوية إنما وقع الوضع فيها معاً فلا يجوز لك الاعتقاد بسبق الاسم على الفعل أو سبق الفعل على الحرف

وسمما يكن من شيء فإن بعض الأسماء — أعني أسماء الأعلام والأجناس بوجه خاص — تتماز على سائر الأصول اللغوية بأنها وضعت للدلالة على الأشياء المحيطة بالانسان في بيئته الطبيعية والاجتماعية ، وما عساه ينجم عنهما في حياته الفكرية ، بكس الحروف والأفعال — مثلاً — التي إنما وضعت لتدخل بها « الأسماء في المعاني والأحوال »^(١) ، أو بعبارة أخرى ترتبط ما بين الأسماء في سجل معلومة مستقلة بدلالاتها اللفظية

ومعنى ذلك أنه يتمنر على الانسان مثلاً أن يستدل بالأفعال والحروف العربية على نوع الحياة الطبيعية والاجتماعية التي كان يحياها العرب قبل الاسلام ، إن لم يكن ذلك مستحيلاً عليه ، في حين أن استدلاله بالأسماء يكاد يكون في حكم الواجب القوي

(١) الخصائص لابن جني ٤٣٢

أوفى حكم المجهول ، فنشأت حول ذلك نظريات عديدة متباينة ، لكل نظرية أنصار متحزبون وعلماء محققون ، ثم إن بعض اللغات حاولوا درس هذه اللغات بطريق القياس والمقابلة فخرجوا من هذا الدرس بنتائج باهرة لم يتسق للمنطق والتاريخ أن يتوصلا إليها . إذ وجدوا أن بين اللغات الأوروبية على اختلافها من ناحية واللغة السنسكريتية - أقدم اللغات الهندية الموجودة - من ناحية أخرى كثيراً من الشبه في القواعد والأوضاع اللغوية ، كما وجدوا أن فيها بعض الأسماء المشتركة كـبعض أسماء الأعداد والأجناس ونحوها ، فاستخلصوا من ذلك أنه لا بد من أن تكون اللغات الأوروبية والهندية من فصيلة واحدة دعوها باللغات « الأندو أوروبية » Indo-European

وإذ انتهوا من ذلك فانهم حاولوا أن يستدلوا بهذه الأسماء على موطن « الأندو أوروبيين » الأصلي ووصف بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، وما إذا كانوا يعرفون البحر والأحراج والأنهار ، وأى أنواع الحيوانات كانوا على اتصال وثيق بها ، وهل عرفوا الحديد والبرونز قبل شتاتهم وانقسامهم قبائل وشعوباً ، ثم هل كانوا على درجة كبيرة من التمدن والحضارة ؟ أم كانوا بعد في طور الفطرة الانسانية العريقة في البداوة ، ولهم في ذلك أبحاث مطولة دقيقة تنطوي على كثير من قوة التحقيق والتحليل ورجاحة الفكر والنظر

وقس عليه محاولات المستشرقين في الاستدلال ببعض الأسماء المشتركة بين الأقوام السامية على موطن الساميين الأول ونوعه ، وحضارة الساميين ومقدارها ، بل قس عليه أبحاث المحققين في مختلف نواحي الحياة الانسانية قبل الأعصر التاريخية حيث تنعدم الآثار والمنقولات ، فلا تكاد تجد من مصادر درسها إلا اللغات التي نشأت مع الانسان وسائرته في تطوره واستوائه

فالمعجب من العلم الحديث ونشاطه ومؤهلته البالغة التي لم تترك كبيرة ولا صغيرة من سامت الكون أو ناطقه دون أن تحاول استقرائها ونيش دقاتها عسى أن يكون فيها ما يثير سبل القوم في تفهم أسرار الكون ومظاهر الحياة الانسانية

ظاهر الرجائي

ياقا

اليهودية ، وحناء بطرس في المسيحية ، ومحمد والحدادين في الاسلام بل ترى في بعض أزمنة الاضطهاد والنالو الديني أن لفظ المولى عن وجل يشترك عادة في أسماء الملوك والأمراء من أولى الحل والعقد في تلك الأعصر الرهية . يتضح ذلك من أسماء الخلفاء من ولد العباس في أواخر أيامهم حين أمتت الخلافة رمزاً للنفوذ الديني مجرداً عن السلطة الزمنية ، وفي خلفاء الفاطميين وغير الفاطميين من السلالات الملكية التي قامت على الدعايات الدينية ومن ناحية أخرى ترى أن بعض الأسماء قد تضيع في زوايا الالهال والنسيان ، ولو إلى حين ، لأنها تكون عادة أسماء بعض الأفراد أو الجماعات المظلمة ، بحيث يستدل من ذلك على مبلغ غلو الدولة القائمة وشدها على الفرق المناوئة ، فمثلاً إذا علم القارئ أن العلويين والشيعة كانوا مضطهدين في الدولة الأموية ، فإنه يستطيع أن يستدل على مقدار هذا الاضطهاد إذا ذكر أن الناس في أيامها كانوا كما يقول المستشرق « مارجليوث » يتحاشون تسمية الأبناء والأحفاد بأسماء علوية كـملى والحسن والحسين وأشباهاها (١)

وبعد فقد أوردنا لك بعض فلسفة الأسماء موضحاً بالأمثلة النظرية ، ولكننا لم نشرح لك كيف كان استغلال العلم الحديث لها ، لأن هذه الأمثلة على وفرتها قليلة النفع من ناحية عملية تطبيقية إن لم تكن عديمة ، لأن الحياة القريبة الجاهلية من الأزمنة التاريخية التي تتوفر فيها النصوص والوثائق والآثار . ومن هنا قطعنا بأن الحاجة غير ماسة إلى استيضاح الأسماء العربية وتفصيل ما تنطوي عليه من ألوان هذه الحياة المتنوعة

وإنما تبين فلسفة الأسماء الخاصة وترجح قيمتها العملية المحسوسة في الأبحاث الدقيقة المنمقدة حول حياة الانسان الأولى ، التي لا نجد لدرسيها من المصادر الأولية سوى اللغات وبعض الآثار الجيولوجية التي تراها تكتشف بين حين وحين ، وينفض الغبار عنها فتقيم الموج من هذه الدراسات وتثير المهيم المستغلق فمن ذلك أن أصل اللغات الأوروبية ظل إلى عهد قريب مجهولاً

(١) في كتابه « محاضرات على مؤرخى العرب » ص ٨٦